الباب الثاني

الفصل الأول

خلفاء جنكيزخان إلى هولاكو

كان قانون المغول ينص على أن ما يستولي عليه المغول من أقاليم وما يدخلونه من بلاد يصبح ملكاً للأسرة الحاكمة.

وما إن مات جنكيزخان حتى نشط أولاده إلى تقسيم مملكته بينهم، فاختص تولوي بأملاك أبيه الأصلية قبل التوسع، أي شرق منغوليا وصارت له الزعامة على نحو مئة ألف من الجند.

أما جغطاي فحصل على منطقة البراري التي كانت تحتلها إمبراطورية بلاد الخطا، والتي كانت تمتد من بلاد الأويغور في الشرق إلى بخارى وسمرقند في الغرب.

أما أوغطاي، فحصل على الشمال الشرقي من بحيرة بالكاش.

نشط جوجي، الابن الأكبر للخان الأعظم، فكان من نصيبه البلاد غربي نهر سيلنجا وتشمل سهوب القوقاز، وضفاف الفولغا، وكل الإمارات الروسية.

والآن نحن نمضي في لقطات سريعة نرصد مسيرة أبناء جنيكز خان الأربعة:

* جغطاي.
* أوغطاي.
* تولوي.
* جوجي.

obeikandl.com

أوغطاي:

كان أوغطاي أذكى أبناء جنكيزخان؛ فقد اشتهر بالعبقرية في الحرب والنشاط في الفكر، وشدة العاطفة، إضافة إلى ما تمتع به من الإدراك السليم والبساطة والمرح، حقاً لقد تولى تولوي -أصغر أبناء الخان- السلطة بعد وفاة أبيه، وظل عامين على عرش الإمبراطورية، لكنه كان يعلم أن العرش من حق أخيه أوغطاي، فانعقد قوريلتاي المغول سنة ١٢٢٩م واختير أوغطاي خاناً أعظم.

وكان للصيني ليوتشوتساي -الذي كان يعمل مستشاراً لجنكيزخان بعد اقتحام الخان الأعظم لها- تأثير قوي على حكومة أوغطاي؛ إذ أدخل إلى إمبراطورية المغول ترتيب الوظائف، وسرعان ما اتخذ أوغطاي بعد ست سنوات مقراً لحكمه مدينة البلاط أو (أوردوباليق) والتي تحول اسمها إلى قرة قورم، صحيح أن جنكيزخان أقام فيها دار حكمة، لكن أوغطاي أقام حولها الأسوار، وفي موقعها المتميز أعالي نهر أورخون استطاع أوغطاي إدارة منغوليا على أفضل صورة ممكنة، كما كانت همزة وصل بين شرق منغوليا الموطن الأصلي للخان الأعظم جنكيز وبين أقطاع أوغطاي على نهر وارتيش رافد نهر أوبي.

وجرى تنظيم دواوين المغول، وسعى المغول إلى إقامة نظام للبريد لسد حاجة الإمبراطورية من الناحية العسكرية، ووفروا لكل محطة بريد ما تحتاجه من مركبات وسائقين وجياد ومؤونة.

وخاض أوغطاي عدداً من الحروب لتثبيت أركان إمبراطورية المغول. وبدأ أوغطاي بتدمير مملكة كين بشمال الصين ودخولها والانطلاق إلى بلاد فارس، وجنوب روسيا.

حدث بعد وفاة نائب جنكيزخان بالصين أن سعت أسرة كين الحاكمة في الصين لاستعادة ممتلكاتها، فاستردت من المغول حوض الوادي وحصن هور تشونج، وطمح آخر ملوك أسرة كين واسمه نت كيارسو إلى الاستيلاء على أراضٍ جديدة من أملاك المغول.

لكن المغول نشطوا فاستولوا سنة ١٢٣١م على حوض الوادي وبعد عام نشطوا في خطة محكمة إلى السير والاستيلاء على حصن هورتشونج، واستطاعوا التوغل في الصين والقضاء على أسرة كين.

وبذلك أضيفت مملكة أسرة كين إلى الإمبراطورية المغولية.

ثم نشط المغول إلى غزو إمبراطورية سونغ جنوبي الصين، فوجهوا ثلاثة جيوش إليها وتم الاستيلاء على بعض أجزائها، لكن الحرب بين إمبراطورية سونغ والمغول ظلت أربعين سنة.

وتوجه جيش رابع إلى كوريا فاستولى على عاصمتها كايسينغ في كانون الأول ١٢٣٦م، وتم ضمها إلى إمبراطورية المغول.

أما الحروب في بلاد فارس للقضاء على جلال الدين بن محمد خوارزمشاه فاستمرت ردحاً طويلاً من الزمن.

كان جنكيزخان قد جعل جلال الدين يضطر إلى الالتجاء إلى الهند، حيث أفلح جلال الدين في الزواج بابنة الطميش ملك دلهي، لكن سرعان ما سعى الهنود بالوشاية بين الاثنين مما عجل بطرد الطميش لجلال الدين من الهند إلى فارس.

كان شقيق جلال الدين واسمه غياث الدين قد اعتصم بأصفهان أثناء غزو المغول لبلاده، واستطاع أن يحالف صاحب فارس سعد بن زنكي وأن يوطد سلطانه في فارس، وما إن وصل جلال الدين إلى أخيه غياث الدين حتى استقبله الأخير بحفاوة وأعلن ولاءه له، وسلّم له مقاليد الأمور.

قرر جلال الدين محاربة خليفة بغداد الناصر لدين الله لما كان من عدائه لأبيه محمد خوارزمشاه.

لكن وقف المسلمون في وجه جلال الدين وقرروا حربه، وأنكروا عليه سعيه لقتال الخليفة. (إمام المسلمين).

قرر جلال الدين العدول عن السير لقتال الخليفة، وتوجه إلى أذربيجان لقتال أتابكها أوزبك الذي حالف المغول ضد أبيه، ولم يقو أوزبك على مواجهة جلال الدين فغادر بلاده، وسرعان ما ملكها جلال الدين ورحب به أهلها سنة ١٢٢٥ ميلادية.

ونشط جلال الدين للحصول على بلاد الكرج أو جورجيا الآن. جرت سياسة أهل الكرج على مساندة الصليبيين على الإمارات المسلمة المجاورة، ولما توجه إليهم جلال الدين بجيشه أنزل بهم الهزائم المتلاحقة، واستولى على العاصمة تفليس سنة ١٢٢٨م، وبذلك صارت لجلال الدين السيادة على غربي إيران، فارس وكرمان وأذربيجان، واتخذ جلال الدين مدينة أصفهان عاصمة له.

لكن جلال الدين لم يحاول الاستقرار لتنظيم مملكته، وإنما اتجهت همته إلى محاربة الخليفة العباسي الناصر لدين الله.

وقبل أن يشرع في مهاجمة بغداد قرر أن يهاجم أخلاط، وكانت من أملاك الملك الأشرف الأيوبي، واستطاع جلال الدين بعد حصار دام سبعة أشهر أن يقتحم المدينة وأن يستبيح فيها الحرمات ويسفك فيها دماء المسلمين، وكان صاحب أخلاط بعيداً عنها.

غضب الأشرف وتحالف مع السلطان علاء الدين بن كيخسر وصاحب بلاد الروم على جلال الدين، واستطاعوا هزيمة جيوشه الجرارة بالقرب من أذربيجان في آب سنة ١٢٣٠م.

فر جلال الدين واستعاد الأشرف أخلاط.

والعجيب أنه قد اجتمع على عداء جلال الدين:

* أوزبك صاحب أذربيجان.

* الأشرف صاحب أخلاط.

* علاء الدين صاحب بلاد الروم.

* الإسماعيلية التي راسلت المغول وساعدتهم على قتال جلال الدين.

* الخليفة العباسي.

وبالطبع، فقد وقع جلال الدين فريسة سهلة في أيدي المغول، لأن السابقين تخلوا عنه جميعاً.

قرر أوغطاي القضاء على جلال الدين والاستيلاء على أملاكه، فعهد إلى تشورماجون بقيادة جيش عدته ثلاثون ألف محارب والانطلاق سنة ١٢٣١م، وسرعان ما استطاع القائد المغولي بسهولة اجتياح الري وهمذان

وأذربيجان، فنشط جلال الدين إلى الفرار إلى سهول مراغة عند مصب نهري أراكس وكورا، وتوجه إلى أخلاط، فلم ينصت إلى تحذيراته بقدوم المغول أحد، وتفرق عنه الجند، فاكتسح المغول أخلاط.

ولم يلبث جلال الدين أن وثب عليه بعض الأكراد وقتلوه في شهر آب سنة ١٢٣١م.

والحقيقة أن جلال الدين كان من المجاهدين العظماء. ويكفي ما ذكره المؤرخ ابن تغري بردي في كتابه (النجوم الزاهرة، الجزء السادس) من حكاية عن جلال الدين..

ذكر ابن تغري بردي أن جماعة دخلوا على الأشرف صاحب أخلاط يهنئونه بموت جلال الدين فصاح فيهم صيحة حق وقال:

«تهنئوني به وتفرحون، سوف ترون غَبَّه، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً في دخول المغول إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج».

لقد كان الخوارزمي يقاتل المغول عشرة أيام بلياليها بعساكره، يترجلون عن خيولهم ويلتقون بالسيوف، ويبقى الرجل منهم يأكل، وهو يقاتل.

طاب المقام للقائد المغولي تشورماجون شمال غربي إيران عشر سنوات، فقد رأى أن في البراري الخصبة ما يسد حاجة الخيل من الغذاء، فضلاً عن خيرات تلك البلاد الوفيرة مما يفي بحاجة جنده من المغول.

وها هو جيشه قد استولى على ممتلكات جلال الدين، وكذلك على مراغة بعد أن فتكوا بالسكان.

ومن أذربيجان اندفع المغول إلى ديار بكر وبلاد أربيل يقتلون ويسبون وينتهكون أعراض المسلمين.

ذكر ابن الأثير من وحشية المغول مع أهل أربيل أن الجندي المغولي كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً واحداً حتى يفنيهم جميعاً.

وصار للمغول السيطرة على بلاد فارس كلها سنة ١٢٤١م.

ولم يقر للمغول قرار حتى استولوا على بلاد الكرج، والطريف أن المغول أقروا على هذه البلاد ملكتهم التي طردها جلال الدين.

ونشط المغول، بعد وفاة تشورماجون سنة ١٢٤٢م إلى محاربة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وتولى هذه ا لمهمة خليفة تشورماجون المدعو بيجو.

توغل المغول في آسيا الصغرى واستطاعوا الاستيلاء على أرخروم، ثم حطموا جيش السلطان علاء الدين قرب أرزنجان سنة ١٢٤٣م، واستولوا على سيواس وخربوا قيصرية ونهبوها.

هرب علاء الدين إلى الحدود البيزنطية، بينما سارع وزيره إلى باطو بصبحة بيجو واستطاع الحصول على معاهدة بمقتضاها يدفع سلاجقة الروم الجزية للمغول شريطة ألا يدمروا بلاده.

طمح أوغطاي إلى السيطرة على أوربا.

فأعد جيشاً سنة ١٢٣٥م من خمسة عشر ألفاً ووجهه إلى أوربا، كان الجيش بقيادة باتو، وفي خريف سنة ١٢٣٦م استطاع الجيش تدمير مملكة البلغار قرب نهر الفولغا.

وفي الربيع التالي هاجم المغول القوقاز من البراري الروسية وأخضعوها لسلطانهم سنة ١٢٣٨م.

وفي السنة نفسها دمر المغول موسكو.

ودمروا كييف عاصمة أوكرانيا في كانون الأول سنة ١٢٤٠م.

ومضى جيشان مغوليان، أحدهما إلى بولندا والآخر إلى المجر، واستطاع

الجيش الأول هزيمة جيش بولندا في نيسان سنة ١٢٤١م، كما حقق الجيش الثاني الفوز على قوات المجر، وأحرق المغول عاصمة المجر (بست) .

ووافق مناخ بلاد المجر وبولندا مزاج المغول فأمضوا هناك الصيف والخريف من سنة ١٢٤١م.

لكن كان على المغول أن يتوقفوا في غزوهم لأوربا عند هذا الحد؛ فقد وصلت الأنباء عن وفاة الخان الأعظم أوغطاي في العام نفسه ١٢٤١م.

وعاد باطو إلى قره قورم ليشارك في انتخاب الخان الأعظم الجديد .

كيوك خان:

تولّت أرملة أوغطاي الوصاية على العرش، وظلّت تدير شؤون إمبراطورية المغول بمهارة مدة أربع سنوات .

كان أوغطاي قد جعل ولاية العهد لابنه كوجو؛ لكنه توفي في القتال ضد أسرة سونغ بالصين عام ١٢٣٦م، فاتجهت توراكينا خاتون أرملة أوغطاي للعمل على تنصيب ابنها كيوك خاناً على المغول.

اجتمع القوريلتاي في صيف سنة ١٢٤٦م، واختار كيوك خاناً أعظم، ولقد استمر حكمه عامين، واشتهر بالاستعانة بمستشارين من النساطرة.

لكن كيوك كان يعشق السيطرة والتسلط، وإذ به يرفض أن يرث هولاكو ملك أبيه أوغطاي ويسعى إلى تنصيب أخيه يسومنجو محله سنة ١٢٤٧م، وصار له السلطان على القائد بيجو.

حشد كيوك خان قواته لمحاربة باتو، لكنه توفي وهو في الطريق إلى سمرقند في نيسان سنة ١٢٤٨م.

وتولت أرملة كيوك خان الوصاية على العرش، لكن باتو حرص على استبعاد أسرة أوغطاي من العرش، فرشح مانكو بن تولوي لتولي زعامة المغول، وبالفعل تولى مانكو العرش بانتخاب القوريلتاي إياه خاناً أعظم سنة ١٢٥١م.

ولما حاول أمراء بيت أوغطاي الانقلاب على الخان الجديد تعرضوا للقتل والتشريد والنفي والسجن.

obeikandl.com

خلفاء جنكيز خان من أسرة تولوي خان

مانكو خان:

تولى مانكو العرش وهو في الثالثة والأربعين من عمره، وهو أشهر خانات المغول بعد جده جنكيزخان.

كان يكره الترف ويهوى الصيد، برع في الإدارة وفي القتال؛ فأعاد الحياة إلى نظم المغول، وأحسن إدارة الإمبراطورية المغولية، وجعلها في غاية القوة.

ولأن أم مانكو خان كانت نصرانية نسطورية حرص ابنها على تقريب النصارى والنساطرة واتخذ منهم رئيس ديوانه.

نشط مانكو خان إلى القضاء على الحشاشين ودولة الخلافة في بغداد. فعهد إلى أخيه الأصغر هولاكو بتلك المهمة.

ولما توفي باتو سنة ١٢٥٥م صار مانكو حاكماً مطلقاً في إمبراطورية المغول.

وقرر مانكو أن يولي أخاه هولاكو على بلاد فارس نائباً عنه، على أن ينهي هولاكو إمارة الإسماعيلية في فارس، وخلافة بني العباس في بغداد.

وقال في رسالة وجهها إلى أخيه:

« فلتقم ما كان لجنكيزخان من تقاليد وعادات وقوانين في كل الجهات الممتدة من نهر جيحون حتى أطراف مصر، وكل من يعلن الخضوع والطاعة لأوامرك فليلق منك المعاملة الطيبة ولتغمره بكل مظاهر العطف، وكل من يعص أوامرك فلتشتد في إذلاله ».

حرص مانكو أن يوفر لحملة هولاكو ما يحقق لها النصر، فأمر بإصلاح الطرق المؤدية إلى فارس، وبإقامة الجسور، وتوفير العربات لحمل معدات الحصار من الصين، وتوفير المراعي للخيل.

انحدر هولاكو من منغوليا وعبر نهر جيحون في كانون الثاني ١٢٥٦م.

درس هولاكو أحوال الإسماعيلية في بلاد فارس والشام، واطلع على ما يكنه الناس من الكراهية لهم، والرغبة في الخلاص منهم، وحين علم الإسماعيلية باعتزام المغول القضاء عليهم نشطوا إلى جيرانهم، وحاولوا أن يكوِّنوا منهم جبهة موحدة لقتال المغول، بل إن المسلمين في قزوين « وكانوا خاضعين لحكم المغول »، شكوا إلى مانكوخان ما يتعرضون له من أذى بالغ من الإسماعيلية، وأكدوا له أن الإسماعيلية ليس لهم دين ولا ملّة.

أما ركن الدين خورشاه زعيم الإسماعيلية في هذه المدن فقد اعتصم بقلعة منيعة، فأرسل إليه هولاكو أن يغادر القلعة وأن يحضر إليه في

معسكره، فانصاع ركن الدين إلى رأي هولاكو وسلّم له قلعة الموت في كانون الأول ١٢٥٦م.

وقضى هولاكو على ركن الدين وأعوانه وأقاربه، وأباد الإسماعيلية عن آخرهم.

وانطلقت قوات هولاكو تجاه بغداد، سنة ١٢٥٨م وكان الخليفة في ذلك الوقت هو المستعصم، الذي لم يكن شديد البأس، بل قليل الخبرة بأمور الخلافة، مضيع الهيبة في نفوس الناس، وكان تصريف الدولة بيد أصحابه.

وكان وزيره الشيعي ابن العلقمي على عداوة مع كاتب الخليفة السني مجاهد الدين أيبك الدوادار.

أشار الوزير على الخليفة أن يخفض عدد الجيش وأن يحمل إلى المغول ما يحصله الجند الذين سيسرحون من الخدمة، وانتهى أمر الجيش إلى أن أصبح تعداد الجيش عشرين ألفاً.

رفض المغول الجزية وأصروا على القتال طمعاً في ثروة بغداد.

طلب هولاكو إلى الخليفة أن يشركه في الحكم، وأرسل إليه إنذاراً جاء فيه:

«إنك علمت أن الجيوش المغولية منذ زمن جنكيزخان قد أخضعت العالم بأسره، وبفضل عون السماء أنزلت ضربات المغول الذلة والمهانة بكل من الخوارزمشاهية في خوارزم، والسلاجقة وملوك الديلم، وسائر الأتابكة، ومع ذلك لم يكن باب بغداد موصداً في وجه هذه العناصر التي استطاعت أن تفرض سيطرتها عليها، فكيف يجري إذن منعنا من الدخول إليها؟ أتحب أن تخوض الحرب ضد لوائنا..؟»(*).

رفض الخليفة الإنذار، وتعرض رسل هولاكو للإهانة على يدي سكان بغداد.

فلم يجد هولاكو مناصاً من التوجه إلى بغداد، وزحف هولاكو إليها من همدان، وها هم قادة المغول بايجو وتيمور وسونجاق قد تجمعوا بقواتهم على الضفة الغربية لنهر دجلة، بينما طوّق هولاكو وكتبغا بقواتهما بغداد من الضفة الشرقية.

لكن الخليفة غادر بغداد وذهب إلى هولاكو الذي طلب إليه أن يأمر أهل بغداد بالخروج إلى المغول، وما كادوا يفعلون حتى فتكوا بهم فتكاً ذريعاً..

(*) النص مأخوذ من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني.. ج١.

وبلغ ضحايا بغداد ٢٠٠ ألف إنسان.

ودخل هولاكو المدينة في شباط ١٢٥٨م، وقصد دار الخلافة، وأحضر الخليفة أمامه، وحين تم لهولاكو الاستيلاء عليها صرع هولاكو الخليفة وأفراد أسرته.

أثار استيلاء المغول على بغداد ارتياع أمراء المسلمين، فبادر معظمهم بإعلان الطاعة لهولاكو، ومن هؤلاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي بلغ من ولائه لهولاكو أن بعث إليه هولاكو رؤوس أسرة خليفة بغداد ليعلقها على أسوار الموصل.

نشط هولاكو إلى محاربة الأيوبيين. واشتد في حرب الملك الكامل صاحب ميافارقين الذي رفض الانصياع والتبعية للمغول، وما إن سقطت ميافارقين في يد هولاكو سنة ١٢٦٠م حتى قَتَل هولاكو الملك الكامل ومثل بجثته تمثيلاً بشعاً.

لم يبق في المواجهة في الشرق غير مصر.

واستعد هولاكو لغزوها وتحطيم قوة المماليك فيها.

وسرعان ما استولى المغول على حلب ودمروها في شباط سنة ١٢٦٠م، أما الناصر يوسف صاحب دمشق فانطلق إلى مصر بصحبة صاحب حماة، ولم تلبث دمشق أن سقطت في أيدي المغول.

لكن وفاة مانكو في آب ١٢٥٩م، أجلت الحملة إلى مصر إلى حين.

obeikandl.com

هولاكو وبركة خان:

عاد هولاكو إلى مملكته ليكون على مقربة من الأحداث في منغوليا، وليدافع عن أطراف مملكته ضد أطماع ابن عمه بركة خان زعيم القبيلة الذهبية الذي كان دائم الميل إلى المسلمين، والذي أنكر على هولاكو ما أجراه من مذابح ببغداد، وقتله للخليفة العباسي؛ لتلك الأسباب كان لابد من عودة هولاكو إلى فارس.

خلف هولاكو قائده كتبغا على الشام.

لكن هولاكو كان قد أوصى كتبغا بالهجوم على مصر، فوجه سفارة إلى مصر يطالب السلطان سيف الدين قطز بتسليم البلاد وذلك في كانون الثاني ١٢٦٠م، وكان ضمن الرسالة التي أوردها المقريزي في كتابه: (السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١): «من ملك الملوك شرقاً وغرباً، الخان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا -إشارة لكون قطز من الخوارزمية حيث قيل إنه ابن جلال الدين ذاته- إلى هذا الإقليم يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك قطز وسائر أمراء دولته

وأهل مملكته بالديار المصرية، وما حولها من الأعمال أنّا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حلّ به غضبه».

«.. فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع».

obeikandl.com

ملحوظة:

هذا الأسلوب البلاغي في رأينا أن صاحبه هو نفسه المؤرخ رشيد الدين الهمذاني صاحب جامع التواريخ، أو تاريخ المغول الذي عاصر الأحداث عن كثب وكان كاتب سيرة المغول الأشهر.

شاور قطز أصحابه، ثم عمد إلى قتل الرسل الموفدين من قبل كتبغا وكان هذا إيذاناً بالحرب.

قاد قطز جيشه على امتداد الساحل في شهر آب ١٢٦٠م خارج عكا، واستطاعت القوات المصرية رصد تحركات جيش كتبغا، والمضحك أن القائد المغولي استخفّ بالقوات المصرية وظن أن قوة المغول لا تقهر، فلم يتخذ طلائع أو كشافة لرصد تحركات أعدائه، بل ركن إلى الدعة والخمول بعد أن اجتاز جيشه نهر الأردن، ونزل بشرق الجليل.

تحرك الجيش المصري إلى عين جالوت في أيلول ١٢٦٠م، ولما بادر كتبغا بالهجوم على القوات المصرية أطبق عليه جيش مصر من كل صوب واستبسل في القتال حتى صُرع كتبغا ذاته، وكان هذا النصر المؤرز، على المغول في الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ (أيلول ١٢٦٠م).

كانت عين جالوت بداية انكسار شوكة المغول؛ إذ تعرض جيشهم لأول مرة للدمار التام، وعظم حزن هولاكو بسماعه نبأ الكارثة، وسرعان ما نهضت الشعوب التي استعمرها المغول تحمل لواء الثورة عليهم، ومن الطريف أن أهل دمشق اشتدوا على النصارى وهدموا كنائسهم، وقتلوا عدداً منهم، انتقاماً لما عانوه من النصارى الذين انتهزوا فرصة استيلاء المغول على دمشق وخربوا المساجد والمآذن، وضربوا الناقوس، وألزموا المسلمين بالقيام في محلاتهم للصليب، وتجرؤوا فشربوا الخمر في الطرقات.. وانطلق المسلمون فقلتوا صنائع المغول من أهل دمشق.

وهذه الرواية أوردها المقريزي في كتابه السلوك.

وطارد المماليك المغول إلى حدود حلب واستردوا ما كان في أيديهم من أسرى المسلمين.

واحتفظت مصر بمالها من حضارة ومدنية، ولم تتعرض كغيرها من البلاد للخراب والدمار، وأصبح سلطان المماليك غالباً على مصر والشام.

وكان خلاص مصر من المغول فرصة للمصريين للتفرغ للحرب الصليبية وطرد من بقي منهم في الشرق العربي.

حين تولى الظاهر بيبرس السلطنة على مصر في الرابع والعشرين من تشرين الأول ١٢٦٠م وجه جهوده للتفاهم بين المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي، وكانت العقبة الكؤود أمام بيبرس الأمير سنجر الحلبي الذي رفض أن ينضوي تحت لواء بيبرس وأعلن نفسه سلطاناً على الشام. وفي كانون الثاني ١٢٦١م استطاعت قوات بيبرس الاستيلاء على دمشق وتحطيم قوة سنجر، وليمكن بيبرس لحكمه ويصبغه بالصبغة الشرعية سارع بإحضار أحد أعمام الخليفة المستعصم ويدعى أحمد، وبايعه بالخلافة في العام التالي باسم الخليفة الحاكم.

نشط هولاكو إلى محاربة بيبرس، لكن انقسمت إمبراطورية المغول على نفسها مما حال دون إنهاء دولة المماليك.

فبعد وفاة مانكو أصبحت الإمبراطورية المغولية ثلاثة أجزاء:

* هولاكو في فارس.

* قوبلاي في الصين.

* قيدو في غربي منغوليا.

أما بركة خان حفيد جوجي الذي اعتنق الإسلام فقد اختص بجنوبي روسيا في منطقة وادي الفولغا.

ولقد ذكرنا سابقاً أن بركة خان قد عنّف هولاكو على فتكه بالخليفة العباسي المستعصم، وبالتنكيل بأهل بغداد.

راسل بيبرس بركة خان وحثه على قتال هولاكو الذي أهدر دماء المسلمين وعاث في بلاد المسلمين فساداً.

قرر هولاكو القضاء على بركة خان والتفرغ لبيبرس، فاجتازت جيوشه إلى بلاد بركة خان من المسلمين، لكن قوات بركة خان تصدّت لجيوش هولاكو وألحقت بها خسائر فادحة فارتدّت إلى أذربيجان.

وأصبح واضحاً أن موقف هولاكو صار حرجاً نظراً لإسلام قبيلة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية في جنوبي روسيا، ثم تربص المماليك في مصر والشام بالمغول.

ثم وجه بيبرس ضربة عنيفة إلى هولاكو حين تزوج بابنة بركة خان.

وفي سنة ١٢٦٣م، انعقدت معاهدة التحالف بين السلطان بيبرس والسلطان بركة خان لمناهضة هولاكو.

اتجه هولاكو إلى القضاء على أمراء الأقاليم القريبة من فارس، ولقد ذكرنا فيما سبق أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كان محالفاً للمغول لدرجة أن

هولاكو حين فتك بالخليفة العباسي في بغداد أرسل رؤوس أفراد أسرة الخليفة إليه بالموصل ليعلّقها على جدران الموصل.

وقد حدث أن ولد بدر الدين المدعو الصالح إسماعيل خطب ود بيبرس وسعى إلى محالفته، فغضب هولاكو غضباً شديداً فوجه إليه جيشاً عظيماً حاصر الموصل سنة ١٢٦٢م، واقتحمها وقتل أهلها وهدمها ونكل بالصالح إسماعيل تنكيلاً.

وحين أعلن سلجوق شاه أتابك فارس ثورته على المغول، قتله المغول سنة ١٢٦٤م وضمها هولاكو إلى ممتلكاته.

ولم يلبث هولاكو أن مات في الثامن من شهر شباط ١٢٦٥م قرب مراغة، ولحقت به زوجته النسطورية طقز خاتون.

وقبل أن نختم هذا الفصل عن بركة خان وهولاكو نحب أن نسوق طرفاً من الرسالة التي بعثها بركة خان إلى بيبرس سنة ١٢٦٣م، إنه يقول في الرسالة: «فليعلم السلطان الظاهر أنني حاربت هولاكو الذي هو من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام؛ لأنه باغ والباغي كافر بالله ورسوله».

أرأيتم كيف يصنع الإسلام بأهله؟! أو لا يذكرنا هذا بما حدث بين المشركين وأولادهم الذين أسلموا لله في فجر الدعوة الإسلامية.